الاستاذ

الجزء الثامن والثلاثون من السنه الاولى

يوم الثلاثاء ٢٩ شوال سنة ١٣١٠ و٩ بشنس سنة ١٦٠٩

الموافق ١٦ مايو سنة ١٨٩٣

دفع اعتراض البشر عن اعتقاد القضاء والقدر

لاحد افاضل مصر

مضت سنة الله في خلقه بان يكون للعقائد القلبية سلطان على الاعمال البدنية فما يكون فيها من صلاح او فساد فانما مرجعه فساد العقيدة وصلاحها على ما بينه الشارع ورب عقيدة واحدة تأخذ باطراف الافكار فيتبعها عقائد ومدركات اخرى ثم تظهر على البدن باعمال تلائم اثرها في النفس · ورب اصل من اصول الخير والكمال اذا عرض على الانفس في تعليم او تبليغ شرع وقع فيه الاشتباه عند السامع فيلتبس عليه بما ليس من قبيله او يصادف بعض الصفات الرديئة والعقائد الباطلة فيعلق به عند الاعتقاد شيء مما يصادفه وفي الحالين يتغير وجهه ويختلف اثره وربما يتبعه عقائد فاسدة مبنية على الخطأ في الفهم او على خبث الاعتقاد فتنشأ عنها اعمال غير صالحة على غير علم من المعتقد كيف اعتقد هذا ولا كيف يصرفه اعتقادهُ والمغرور

بالظواهر يظن ان تلك الاعمال انما نشأت عن اعتقاد ذلك الاصل ومن مثل هذا الانحراف وقع التحريف والتبديل في بعض اصول الاديان غالباً وهو علة البدع والنحل في كل دين وكثيراً ما كان هذا الانحراف وما يتبعه من البدع منشأ لفساد الطباع وقبائح الاعمال حتى افضى بمن ابتلاهم الله تعالى به الى الهلاك وهذا يحمل بعض من لا خبرة لهم على الطعن في دين من الاديان او عقيدة من العقائد الحقة استناداً على اعمال بعض السذج المنتسبين الى الدين او العقيدة . ومن ذلك عقيدة القضاء والقدر التي تعد من اصول العقائد في الديانة الاسلامية فقد كثر فيها لغط بعض الافرنج وزعموا انها ما تمكنت من نفوس قوم الا وسلبتهم الهمة والقوة وحكمت فيهم الضعف والضعة ورموا المسلمين بصفات ونسبوا اليهم اطوارا حصروا علتها في اعتقاد القضاء والقدر وقالوا ان المسلمين في فقر وتأخر في القوى الحربية والسياسية عن سائر الامم وقد نشأ فيهم الكذب والنفاق والخيانة والتحاقد والتباغض وتفرقت كلمتهم وجهلوا احوالهم الحاضرة والمستقبلة وغفلوا عما ينفعهم ومـا يضرهم وقنعوا بحياة ياكلون ويشربون فيها وينامون ثم لا ينافسون غيرهم في فضيلة ومتى امكن احدهم ان يضر اخاه لا يقصر في ذلك فجعلوا بأسهم بينهم والامم من ورائهم تبتلعهم لقمة لقمة وقد رضوا بكل عارض واستعدوا لقبول كل حادث وركنوا الى السكون في زوايا بيوتهم . والامراء منهم يقطعون ازمنتهم في اللهو واللعب ومعاطاة الشهوات وعليهم فروض وواجبات تستغرق اعمارهم في ادائها ولا يؤدون شيئاً منها يصرفون اموالهم فيما يقطعون به زمانهم اسرافاً وتبذيراً ولا ينال ملتهم واوطانهم منها شيء . وقد خلطوا المصالح العامة بالمصالح

الذاتية فكم من تنافر بين امرين اضاع امة · وكل منهم يخذل صاحبه و يستعدي عليه جاره فيدخل بينهم الاجنبي وقد وجد قوة ضعيفة ونفوساً متخاذلة فيتمكن من بلادهم بغير عدد ولا عدد شملهم الجبن وعمهم الخوف وقعدوا عن الحركة وخالفوا في ذلك كله اوامر دينهم مع رؤيتهم جيرانهم بل بعض من هم تحت سلطتهم يتقدمون عليهم و يباهونهم بما يكسبون · ولا توجد فيهم جمعيات ملية لا سرية ولا جهرية يكون من مقاصدها احياء الغيرة وتنبيه الحمية ومساعدة الضعفاء وحفظ الحقوق من تعدي الاقوياء وتسلط الغرباء · هكذا نسبوا هذه الصفات الى المسلمين وزعموا ان لا منشأ لها الاَّ اعتقادهم القضاء والقدر واحالة جميع وقائعهم على قدرة الله وحكموا بان المسلمين اذا داموا على هذه العقيدة لا تقوم لهم قائمة ولا يعود لهم مجد ولا يرجع اليهم حق ولا يؤيدون سلطاناً ولا يحفظون ملكاً ولا يزال الضعف يعمل بهم حتى يفنيهم بالمنازعات وما يسلم من ايدي بعضهم تحصده الاجانب · واعتقد اولئك الناس انه لا فرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر وبين الاعتقاد بمذهب الجبرية القائلين بان الانسان مجبور في جميع افعاله وتوهموا ان المسلمين باعتقادهم هذا يرون انفسهم كالريشة المعلقة في الهواء تقلبها الرياح كيفما تميل ومتى رسخ في نفوس قوم انهم لا اختيار لهم في قول ولا عمل ولا حركة ولاسكون وانما ذلك بقوة قاهرة تتعطل قواهم و يفقدون ثمرة ما وهبهم الله تعالى من المدارك والقوى وتمحي من خواطرهم داعية السعي والكسب هكذا ظنت طائفة من الافرنج ايضا وذهب مذهبها كثير من ضعفاء العقول في المشرق · وقد اخطاء اصحاب هذا الزعم فانه لا

يوجد مسلم في هذا الوقت سنياً كان اوشيعياً او زيديا او اسماعيلياً او وهابياً او خارجياً يرى مذهب الجبر المحض و يعتقد سلب الاختيار من نفسه بالمرة بل كل هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بان لهم جزءا اختيارياً في اعمالهم ويسمى بالكسب وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم وانهم محاسبون بما وهبهم الله تعالى من هذا الجزء الاختياري ومطالبون بامتثال جميع الاوامر الالهية والنواهي الربانية وان هذا النوع من الاختيار هو مدار التكليف الشرعي و به تتم الحكمة والعدل · نعم كان بين المسلمين طائفة تسمى بالجبرية ذهبت الى ان الانسان مضطر في جميع افعاله اضطراراً لا يشوبه اختيار وزعمت انه لا فرق بين ان يحرك الشخص فكه للاكل و بين ان يرتعد بشدة البرد · ومذهبها يعده المسلمون من منازع السفسطة الفاسدة وقد انقرض ارباب هذا المذهب في اواخر القرن الرابع من الهجرة ولم يبق لهم اثر وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر ولا من مقتضياته ما ظنه اولئك الواهمون فان الاعتقاد بالقضاء يؤيده الدليل القاطع بل ترشد اليه الفطرة و يسهل على من له فكر ان يلتفت الى ان كل حادث له سبب يقارنه في الزمان وانه لا يرى من سلسلة الاسباب الا ما هو حاضر لديه ولا يعلم ماضيها الا الله مبدع نظامها وان لكل منها مدخلاً ظاهراً فيما بعده بتقدير العزيز العليم · وارادة الانسان انما هي حلقة من حلقات تلك السلسلة وليست الارادة الا اثراً من آثار الادراك والادراك انفعال النفس بما يعرض على الحواس وشعورها بما اودع في الفطرة من الحاجات فلظواهر الكون من السلطة على الفكر والارادة ما لا ينكره عاقل وان مبدأ هذه

الاسباب التي ترى مؤثرة في الظاهر انما هو بيد الله مبدع الكون الذي خلق الاشياء على وفق حكمته وجعل كل حادث تابعاً لشبهه كانه جزء له خصوصاً في العالم الانساني . ولو فرضنا ان جاهلاً ضل عن الاعتراف بوجود آله صانع للعالم وليس في امكانه ان يتخلص من الاعتراف بتأثير الفواعل الطبيعية والحوادث الدهرية في الارادات البشرية فهل يستطيع ان يخرج بنفسه عن السنة التي سنَّها الله تعالى في خلقه . هذا امر يعترف به طلاب الحقائق وان بعضاً من حكماء الافرنج وعلماء سياستهم التجأوا الى الخضوع لسلطة القضاء والقدر واطالوا البيان في اثباتها ولا حاجة لاثبات آرائهم هنا ثم اننا نعلم ان التاريخ هو العلم الباحث عن سير الامم في صعودها وهبوطها وما ينشأ عن الحوادث من التغيير والتبديل في العادات والاخلاق والافكار بل في خصائص الاحساس الباطن والوجدان وما يلحق ذلك من نشأة الامم وتكون الدول واندراس بعض الممالك . وهذا الفن عد من اجل الفنون الادبية واعظم فوائده بناء البحث فيه على القضاء والقدر واعتقاد ان قوى البشر في قبضة مدبر الكائنات ومصرف الحادثات وهو الله الفاعل المختار ولو استقلت قدرة البشر بالتأثير ما انحط رفيع ولا ضعف قوي ولا ذهب سلطان والاعتقاد بالقضاء والقدر اذا تجرد عن شناعة الجبر تبعه صفة الجراءة والاقدام والشجاعة والبسالة ويبعث على اقتحام المهالك التي ترجف لها قلوب الاسود ويطبع الانفس على الثبات واحتمال المكاره ومقارعة الاهوال ويحليها بحلية الجود والسخاء بل يحملها على بذل الارواح والتخلي عن نضرة الحياة في سبيل الحق الذي دعاها لاعتقاد هذه العقيدة التي منها اعتقاد

تحديد الاجل والرزق وان الاشياء بيد الله تعالى يصرفها كيف يشاء · فكيف يرهب الموت في الدفاع عن حقه واعلاء كلمة ملته والقيام بما فرض الله عليه من ذلك من هذا اعتقاده وكيف يخشى الفقر مما ينفق في سبيل تعزيز الحق وتشييد المجد وتنفيذ الاوامر الالهية · وقد امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيلته بقوله · الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم · وقد اندفع المسلمون في اول نشأتهم الى الممالك والاقطار يفتحونها فادهشوا العقول وحيروا الالباب عند ما دوّخوا الدول وقهروا الامم وامتدت سلطتهم من جبال بيريني الفاصلة بين اسبانيا وفرانسا الى جدار الصين مع قلة عددهم وعددهم وعدم تعودهم على الاهواء المختلفة وطائع الاقطار المتباعدة وقد ارغموا الملوك والقياصرة والاكاسرة في مدة لا تتجاوز ثمانين سنة وهذا يعد من خوارق العادات وعظائم المعجزات · وما ارجفوا قلباً ولا اذلوا ملكاً ولا فتحوا بلداً الا وقائدهم اعتقاد القضاء والقدر الذي ثبتت به اقدام هذه الجنود القليلة امام جيوش لا عداد لها فكشفوهم عن مواقعهم وردوهم على اعقابهم وهو الذي حملهم على بذل اموالهم وارواحهم في سبيل اعلاء كلمتهم وامتداد سلطتهم وسهل عليهم حمل اولادهم ونسائهم الى ساحات القتال في اقصى بلاد العالم كانهم سائرون الى الحدائق والرياض وكانهم اخذوا لانفسهم بالتوكل على الله امانا من كل غادرة واحاطوها بحصن الاعتماد عليه من كل طارقة · وكان اولادهم ونساؤهم يخدمون الجنود بلا رهبة

ولا خوف كانهم في قصور الامن والدعة وهو الذي رفع قدرهم واسكن هيبتهم القلوب فكانوا ينصرون بالرعب يقذف به في قلوب اعدائهم · والتاريخ يخبرنا انه من اول الاجتماع البشري الى اليوم ما وجد فاتح عظيم ولا محارب شهير نبت في اوسط الطبقات ثم ارتفع بهمة الى اعلى الدرجات وبلغ من بسطة الملك ما فيه العجب الا كان معتقداً بالقضاء والقدر · سبحان الله · الانسان حريص على حياته شحيح بوجوده على مقتضى الفطرة والجبلة فما الذي يهون عليه اقتحام المخاطر وخوض بحار المشاق والمهالك الا اعتقاده بالقضاء والقدر وركون قلبه الى ان المقدر كائن لا محالة وقد اثبت التاريخ ان كورش الفارس (كيخسرو) ما حمله على الاقدام واقتحام غمرات الحروب التي فاز فيها بالنصر الا اعتقاده بالقضاء والقدر وان اسكندر الاكبر كان ممن رسخ في نفوسهم اعتقاد القضاء والقدر بل عدوا نابليون الاول بونابرت من اشد الناس تمسكاً بعقيدة القضاء وهي التي كانت تدفعه بعسكره القليل على الجماهير الكثيرة · فنعم الاعتقاد الذي يطهر النفوس من الرذائل · ولا ننكر ان هذه العقيدة قد خالطها شوائب من عقيدة الجبر في بعض العامة وربما كان هذا سبباً في احاطتهم بالمصائب التي اخذتهم بها الحوادث في العصور الاخيرة فرجاؤنا من العلماء العصريين ان يسعوا جهدهم في تخليص هذه العقيدة الشريفة من بعض ما طرأ عليها من لواحق البدع خصوصاً هذا المذهب الفاسد الذي نبه عليه الاستاذ و بين بطلانه فقد انتشر في كثير من بلاد الوجهين القبلي والبحري وفسدت به الاخلاق وتهافت عليه الرعاع والاوباش الفارغون من المعارف اغتراراً بشقشقة لاطائل تحتها

الا غرس الجبن في الطباع وشق عصا المسلمين وايقاع العداوة بينهم بتفريق لكلمة وتوزيع الاهواء بكثرة البدع والنحل وعليهم ان يذكروا العامة بسنن السلف الصالح وما كانوا عليه من الاعتقاد والعمل وينشروا بينهم ما اثبته الائمة الاعلام ووقع عليه اجماع الامة · وان يرشدوا الامة الى ان التوكل والركون الى القضاء انما طلبه الشرع منا في العمل لا في البطالة والكسل وما امرنا الله ان نهمل فروضنا وننبذ ما اوجبه علينا بحجة التوكل عليه فانها حجة الحائدين عن الصراط المستقيم ولا يرتاب احد من اهل الملة الاسلامية في ان الدفاع عنها في هذه الاوقات من الفروض العينية في مقابلة دفاع الامم عن مللهم وليس في ذلك تعصب كما يقول المفسدون فان تدافع الامم في حفظ عقائدهم يقضي علينا بمجاراتهم فيما هم فيه · ومن هنا يعلم ان ما زعمه الافرنج ومن كان على شاكلتهم من ان تاخر المسلمين منشاؤه اعتقاد القضاء والقدر لم يصادف الحقيقة بل ان نسبته اليه كنسبة النقيض الى نقيضه وانما حدث للمسلمين بعد نشأتهم الاولى نشوة من الظفر وثمل من العز فركنوا الى الرفاهية واخلدوا الى الراحة ثم فجاءهم صدمتان صدمة التتار من الشرق وصدمة الحروب الصليبية وتدافع اوروبا بعدها من الغرب ثم تداولتهم حكومات متنوعة ووسد الامر فيها الى غير اهله وولى امورهم من لا يحسن سياستهم فتمكن الضعف من نفوسهم واخذ كل منهم بناصية الآخر يطلب له الضرر ويلتمس له السوء لفساد الاخلاق وعدم التربية واهمال الحاكم شان المعارف واقتصاره على اللذائذ البدنية فانتهى بهم الاهمال الى ما صاروا اليه · ومع ما آلت اليه الامة من الضعف فانها

لن تموت ما دامت هذه العقيدة فيها فان رسوخها في نفوسهم وثبوتها في قلوبهم يدفع عنهم الامراض النفسية والاعراض الخيالية ويبعثهم على النظر في العواقب ويحيي ما مات من العزم والثبات حتى يعود مجدهم القديم ويرد حقهم المسلوب ولا يتوقف ذلك الا على عقد جمعيات علمية وسياسية هذه تعلم العقيدة وتنشرها بين الناس على نفقة المثرين كما تفعل جمعيات اوروبا وهذه تربي الافكار وتقرأ التاريخ وتعلم الفنون السياسية فتمشي الامة بقوتي العلم والعمل بباعث الاعتقاد الحق ومن قال نريد ان نقلد الامم المتمدنة في سيرهم وتقلباتهم لا ينسب الى خشونة ولا تعصب ديني فان عورض في سيره علم ان دعوى الحرية والمساواة دعوى احتيال على التغلب بغير حرب واذلال الامم بطريقة التمويه والتغرير والا فانهم ان انصفونا تركونا نضارعهم في اجتهادهم حتى اذا ظهر لهم صدق معاملتنا لمن غايرنا وطناً وجنساً وحبنا لانتظام احوالنا بائتلافنا مع جميع الامم تحققوا ان فساد الاخلاق انما نشأ عن ترك العقيدة واصبحوا ممن ينادون بدفع اعتراض البشر على اعتقاد القضاء والقدر

سؤال

بعض وكلاء الجرائد يوهمون الناس ان من لم يشترك في جريدة كذا او من اشترك فيها ورفضها ربما ناله ضرر في معاشه او ربما تعطلت عليه مصالحه في الحكومة او صودر بما لا تحمد عقباه وقد اثرت هذه الايهامات في بعض الضعفاء فاعتقدها واخذ يتكلم بها ولا بد ان يكون لكم علم بما للجرائد في دوائر الحكومة فهل هناك ارتباط بين بعض الجرائد وبين الحكومة او جماعة من رجالها